

الخطاب الصوفي بين معضلة الفهم ورحابة التأويل*

Sufi discourse between the dilemma of understanding and broad interpretation.

رياض فرقنيس

جامعة عبد الرحمن ميرة- بجاية- (الجزائر)

(مخبر التأويل وتحليل الخطاب - بجاية - الجزائر)

ferguenisriad86@gmail.com

ملخص : من أكبر الإشكالات التي واجهت الخطاب الصوفي تلك المتعلقة بمستوى فهمه واستيعاب مقاصده ومعانيه. إذ عدت لغته مبهمه، مستعصية على أفهام القراء. تنغلق على نفسها وترفض البوح عن كامل أسرارها. غير أن الإغراق في استخدام الرمز وإخفاء المعنى من دون التصريح المباشر. هو ما يحرك خيال المُلْتَقِي ويدفعه للبحث عن الدلالة المتوارية، وهكذا تتحول عملية التلقي، عملية تأويلية نشطة. تسعى لإصابة المعنى الصوفي والاقتراب من دلالة معانيه. ومن خلال هذه الورقة البحثية، سنسعى إلى الغوص في أعماق النص الصوفي ولغته التي ساهمت في صعوبة تلقي الكتابة الإبداعية الصوفية. مع إبراز قابلية هذا الخطاب للقراءة والشرح والتأويل، متوسمين بمقاربة تأويلية التي تعدُّ بحق، الأنسب لمقاربة هذا النوع من الخطابات.

الكلمات المفتاحية : الخطاب الصوفي، الرمز، التلقي، الدلالة، التأويل.

Abstract: Among the most important problematics that faced the Sufi discourse, there are those concerning its meaning understanding and objectives grasping. Its style is regarded as ambiguous and difficult to understand, still refusing to be open to most readers. Yet, the excess in symbols' use to prevent meaning from explication shakes the receiver's imagination to look for hidden significance. Thus, reception turns into an active interpretative process aiming at reaching the very meaning of Sufism. This paper attempts to get through the Sufi

*

تاريخ النشر: 2021/10/15

تاريخ قبول البحث: 2021/09/04

تاريخ استلام البحث: 2021/07/08

text and its language which contributed in hardening Sufi creative writing, by showing this discourse acceptability to reading, explaining and interpreting; and by using the interpretative approach which seems very fitting to such kind of discourse.

Keywords : Sufi discourse, symbol, reception, significance, interpreting.

مقدمة:

ينفرد الخطاب الصوفي بلغة مشفرة قائمة على آليات الترميز والغموض. تتركز على الإيحاء والإشارة ما يجعل من معانيه مبهمة. إذ لا يُفصح الخطاب الصوفي عن دلالاته ولا ييوح عن أسرارهِ كاملة، إذ يحجب كثيراً من مقولاته ويتستر عليها، باعتبار البوح والتّصريح خرقاً لقواعد التصوف وخروجاً عن قوانين أهل الطائفة. ولهذا عدّ الدّخول في حقل اللغة الصوفية، دخولاً في دهاليز مظلمة، كونها لغة تتصرف للتّفسير والتّعمية. مليئة بالطلاسم، وتُحيط بها الضبابية. ولهذا اتهم الخطاب الصوفي بكونه خطاباً عسيراً على الفهم، لغته غامضة تُورق القراء وتضعهم في مواجهة مباشرة مع نصوص تصدّمهم وتتعارض مع مقاييس التلقي المألوفة. الأمر الذي أسس لمعضلة فهم الخطاب الصوفي ولغته الإشارية التي يحيطها سياج أبعداها عن المقروئية والفهم لحين. حيث أربكت حدود التلقي لدى العامة، حتى عدّت لغة مخصوصة بفئة المتصوّفين.

ومن المعلوم أنّ من شروط بقاء أي نصٍّ أدبي حيز الخدمة، إنّما يقرنُ بدرجة إثارته الجدل. وهذا ما أعطى الخطاب الصوفي تلك الفاعلية للبقاء والصمود عبر الحقب الزمنية واختلاف المتلقين، هذه الخاصية (قدرة النص الصوفي على الإخفاء والإضمار)، هو ما جعله من الخطابات القابلة على الانفتاح بشكلٍ مستمرٍّ ومتواصلٍ على رؤى وقراءاتٍ جديدةٍ ومتعددةٍ. إذ يتجاوزُ القراءة الأحادية إلى رحاب التأويل المتواصل بحثاً عن المعنى المضمّر الخفيّ.

1- اللغة في الخطاب الصوفي : من غموض المعنى إلى إشكالية التلقي :

أ- غموض المعنى:

لغة الخطاب الصوفي، لغةً إشاريّة، كثيفة بالرموز تحوم حولها الضبابية والغموض. إذ استقلّ الصوفيون بلغةً خاصّة بهم، قوامها الذوق. ولهذا تعاملوا معها بطريقةٍ مُفارقةٍ للعادي والمألوف من التعابير والأقوال. انفردوا بها عن سواهم. يقول القشيري: (وهذه الطائفة يستعملون ألفاظاً فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجمال والستر على من باينهم في طريقهم، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها)⁽¹⁾.

ولهذا تفرّدت اللغة الصوفية بخصائص تميّزها عن باقي الخطابات. لها معجمها الخاص ولها مصطلحاتها المميزة. ولأنّ لغة الصوفي لا تُخاطبُ العقول بل القلوب، ولغته تُعبّر عن حالات باطنية وجدانية، استلزم التعبير عنها بالرمز والإغراق فيه. لأنّه الوحيد - الرمز - القادر على خلق مُعادل تخيليٍّ لتجربته. فلغة الاصطلاح المتعارف عليها تبقى عاجزة عن التعبير أصدق تعبير عن الحالات التي تختلجُ الوجدان الصوفي. لأنّ (التصوف حالات وجدانية خاصة يصعب التعبير عنها بألفاظ اللغة، وليست شيئاً مشتركاً بين الناس جميعاً)⁽²⁾.

استخدم الصوفية في لغتهم إشارات ودلالات تختلف عن تلك المعروفة في الأدب. إذ إنّ اللغة في النصوص الأدبية إنّما تتكوّن بعد إجهاد عقلي وتخطيط إنشائي، عكس اللغة الصوفية التي تستمدّ كينونتها من الاستعداد الروحي والقلبي للصوفي، فتكون اللغة وليدة التجربة الروحية، التي تحتوي التجربة وتؤطرها نصياً.

والرمز في لغة المتصوّفة لا يُجسّدُ غاياتٍ جماليةٍ فحسب، إذ إنّ (الصوفي لا غنى له عن لغة الرمز والإشارة، واصطناع أساليب التمثيل والتصوير لكي يترجم عن أحواله ويعبر عن مواجهه وأذواقه، مهما يكن في لغة الرمز من قصور عن التعبير، لأن موضوعات تجاربه خارجة عن نطاق الموضوعات الحسية والعقلية التي تعبر عنها اللغة الوضعية الاصطلاحية)⁽³⁾.

تفرض خصوصيّة التجربة الصوفية لغةً مغايرةً لطرق التعبير المألوفة، ولهذا نجدهم يلجأون إلى لغة الإشارة ويسترسلون بالرموز للتعبير عن تجاربهم المفعمة بالمعاني الروحية. وانطلاقاً من هذا أسس

الصوفية علومهم التي ظلت سرّية، فهم القائلون: (علمنا هذا إشارة فإذا صار عبارة خفي، و"الإيماء" إشارة بحركة جارحة)⁽⁴⁾.

وهكذا، صارت كتابة الصوفي وأقواله حالات إشراقية مستعصية على الفهم. بعيدة عن النّسق العقلي، تقصّر عقول السّامعين على استيعابها وفهمها. وعن هذا أنشد القنّاد:

(إِذَا نَطَقُوا أَعْجَزَكَ مَرْمَى رُمُوزِهِمْ وَإِنْ سَكَتُوا هَيَّاتَ مِنْكَ اتِّصَالُهُ)⁽⁵⁾

ولكون المتصوّفة أهل إشارة، لا أصحاب عبارة، اهتموا إلى الرّمز واستلهموه ووظفوه على نحو كلّّي أو جزئي بما يلبي حاجيات الفرد الصوفي. لأنّ معانيه لا تدخل ضمن نطاق المحسوس. فلا بديل له إذا سوى التّعليم والتّستر لترجمة أحواله ومواجهه.

عبر الصوفية عن معارفهم وأذواقهم بلغة لا مثيل لها. لها مصطلحاتها الخاصة وحقلها الدّلالي المتفرد؛ الأمر الذي خلف عجزاً عند متلقي الخطاب الصوفي في فكّ نظامه الرّمزي الكثيف وفهم معانيه ورسالته.

ومسألة غموض النص الصوفي مسألة قديمة قدّمت التصوف ذاته. إذ واجهت النصوص الصوفية الرّعيل الأول للمتلقين لهذا الخطاب. فقد سأل بعض المتكلمين أبا العباس بن عطاء: (ما بالكم أيها المتصوّفة قد اشتقتم ألفاظاً أغربتم بها على السامعين وخرجتم عن اللسان المعتاد، هل هذا إلا طلباً للتّمويه أو سترًا لعوار المذهب؟ فقال أبو العباس: ما فعلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه لعزته علينا كيلا يشربها غير طائفتنا)⁽⁶⁾.

وحول هذا أنشد:

"إِذَا أَهْلُ الْعِبَارَةِ سَأَلُونَا أَجَبْنَاهُمْ بِأَعْلَامِ الْإِشَارَةِ
نُشِيرُ بِهَا فَجَعَلَهَا غُمُوضًا تَقْصُرُ عَنْهُ تَرْجُمَةُ الْعِبَارَةِ
وَنَشْهَدُهَا وَنَشْهَدُنَا سُرُورًا لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ إِثَارَةٌ
تَرَى الْأَقْوَالَ فِي الْأَحْوَالِ أَسْرَى كَأَسْرِ الْعَارِفِينَ ذُوِي الْخَسَارَةِ)⁽⁷⁾

مما سبق، نلاحظ أن تجربة الكتابة الإبداعية الصوفية، ومع الغموض الذي يكتنف عباراتها البعيدة الوضوح والإبانة. والتي تُفرط في الرموز والإيحاءات. إنما يعزو لسببين رئيسين؛ الأول، نابع من صميم التجربة نفسها، تتعلق بالمبدع الصوفي الذي يتوخى الحذر من اللغة والعبارة. إذ يقصد التستر على علومه وأسراره وسيتحفظ بها لتبقى مبهمة على الأجانب. وخشية الوقوع في المحذور. إذ إن العلوم الصوفية ربانية خصّها الله بفئة المتصوّفين والاطلاع عليها لا يكون سوى لمن فضّله الله بها. كما أنّ البوح بها خرق لقوانين التصوف، مما يستوجب الحجب والإخفاء.

وسبب ثان، خارجي، يتعلق باللغة. إذ إنّ اللغة الاصطلاحية قاصرة عن أداء المعنى واحتوائه. (فكما أن الحالة الصوفية لا يحكمها مقياس الحس والعقل، كذلك ليس بمقدور لغة الاصطلاح والوضع، أن تعبر عما يتناقض مع الاصطلاح والوضع. وهكذا فإن لغة الصوفي هي، بالضرورة الباطنية، سرية. وهي شأن جميع الأشياء السرية الباطنية لا يمكن فهمها بمنطق الظاهر، وإنما يجب فهمها بمنطقها هي - بمنطق الباطن وحقائقه وأبعاده)⁽⁸⁾. وهذا بالتحديد، ما يصنع غموض اللغة الصوفية، ويسهم في جمالياتها وصعوبة تلقيها في آن واحد. لأنّ الاعتماد على الظاهر اللفظي للنصوص الصوفية. هو الذي خلق أزمة تواصلية، نجم عنها سوء الفهم لهذا النوع من الخطابات. وهذا ما سنتطرق له في المبحث التالي.

ب- مفاتن الخطاب الصوفي وإشكالية التلقي:

تقتضي خصوصية التجربة الصوفية التعبير عن معان مجردة، غيبية، تُعبّر عن الباطن وعن عوالم غير عادية. لا يستشعرها سوى الصوفيون أنفسهم. كما أنّ لكل صوفي تجربة مخصوصة تنفرد عن غيرها من التجارب. لتباين الأحوال والمقامات والأوراد. لهذا استحالت ترجمة هذه التجارب بلغة محسوسة تعينية. فجاءت لغة المتصوّفة ذوقية، كشفية. كسرت النمط المألوف في الكتابة، وأرست نمطاً جديداً غير مسبوق في تشييد الدلالة.

ولأنّ لغة الخطاب الصوفي تنبني على الرّمز والإلغاز والإبهام. فإنّ ما لحق بفهم القارئ من تشوّه في فهم واستيعاب رسالة هذا الخطاب يبدو أمراً مفهوماً. لأنّ هذا التّمتّ في تشييد الدّلالة كما أسلفنا، قد شكّل حاجزاً صعباً اقتحامه، ووقف سداً منيعاً أمام كلّ محاولة لاقتحام أغواره.

ومعروفٌ أن استخدام الرّموز والإشارات والتلويح في النصوص الأدبيّة، شعرية أو نثرية كانت لدواعي تجسيد تقنية من تقنيات الفعل الجمالي ومنح النص أبعاداً دلاليةً كثيفةً ومتنوّعةً. على العكس، فإنّ النص الصوفي، ورغم دورانه في فلك معايير الاتصال الأدبي العام. إلّا أنّه بفعل انزياحه للرّمز ولغة الإشارة بشكل مستفيض. وإغراقه في الغرابة وتوظيف مصطلحات جديدة عن ساحة التعبير الأدبي. أصبح صعب المراس والتّرويض. إذ وقف النص الصوفي انطلاّقاً من هذه الاعتبارات، أمام الفهم والإدراك كون نصوصه قد أخذت منحى لغويًا غير مألوف في دوائر التلقي. فجاءت مبهمة مستعصية، فاتنة بإطلالاتها غير التداولية في الأعراف اللّغوية.

يتخذ النص الصوفي صورته الفاتنة المستغلقة على أفهام المتلقين. من استخدامه صياغات لغوية غير مألوفة. إضافة لإشكالية المصطلح المستخدم، إذ ابتدع الصوفية ضرورياً في التّأليف والتعبير لم يسبقهم إليها أحد. (فالصوفية، بوصفها موقفاً، تشويش لنظام العالم الظاهر وأدوات معرفته، وهي، بوصفها تعبيراً، تشويش لنظام الكلام المألوف.. ومعنى ذلك أن الصوفي لا يقيم بينه وبين الطبيعة وأشياءها علاقات عقلية، وإنما الطبيعة عنده مجمع للرّموز، والصور، والإشارات، وعلاقته بهذا كله علاقات قلبية. بالمعنى الصوفي للكلمة)⁽⁹⁾.

ولأنّ مدار الخطاب الصوفي واقع خارج وعي المتلقي ونطاقه المعرفي. وقع الصوفية في حرج اللّغة واللفظ، الذي وقف عاجزاً على وصف أحوالهم ومواجيدهم وأذواقهم. ووقف المتلقي معهم موقف الحائر التائه أمام الألفاظ التي تجري على ألسنة المتصوّفة. ووقف موقف الذهول والتوتر والمصدوم تارةً، والمستهجن لغريب الألفاظ تارةً أخرى. ومردّ هذا بحسب أدونيس: (هو أن تجربة الكشف تفترض للتعبير عنها كلاماً يفلت في آن من أغلال العقلانية والمنطق، ومن أغلال المشترك

الشائع، إضافة إلى إفلاته من اللاهوتية المذهبية وأحكام الشريعة، ذلك أنه من مما لا يقال، ومما لا يوصف. إنه من طور آخر⁽¹⁰⁾.

وبما أن الخطاب الصوفي موجه إلى خواص الخواص ممن عاشوا وذاقوا هذه التجربة العرفانية، وحصلوا بعد مجاهدات ورياضات روحية على العلوم الدنية. فإنّ خطابهم جاء متصادماً مع أفق التلقي ووقف عقبة أمام استقبال هذه المعارف الربّانية. (لأن من لا إمام له بمصطلح أهل الطريق ينكر مثل ذلك)⁽¹¹⁾. انطلاقاً من جهله بالنظام المعرفي للخطاب الصوفي وافتقاده لآليات إنتاجه. وحين افتقد المتلقي شفرات الخطاب وانعدمت لديه ملبسات وحيثيات الباث الصوفي. انقطع التفاعل للجهل المتلقي مُنطلقات المتكلم الصوفي. والمتلقي الذي أَلَفَ نوعاً مخصوصاً من التلقي جعله يلعب دوراً سلبياً إزاء النص الصوفي. فقابله بالرفض والاستهجان والإقصاء. واتهمه في أحيان أخرى بالغموض والهرطقة والهديان.

خلق الخطاب الصوفي فجوة بينه وبين المتلقي، الذي ترسّب في وعيه نمطٌ من التلقي. جعله في معزلٍ عن إدراك دلالات الخطاب الصوفي (وذلك نظراً للمسافة التي تفصل الوضع التخيلي للمتصوّف باعتباره باثاً والمتلقي المشمول إيديولوجياً وفنياً بوضع تخيلي وأفق مغايرين، والسياق الذي يجمعهما، كالسياق الذي يجمع الوهم والواقع)⁽¹²⁾. وهكذا وجد المتلقي نفسه خارج الحقل الدلالي الذي يرمي إليه الصوفي. ولم يتمكن من إيجاد القرائن اللفظية التي توازي الحمولة اللفظية للمعاني الصوفية. وهو الدافع وراء إقصاء الخطاب الصوفي ووضعه على هامش المقروئية لعقود طويلة من الزمن.

تعرض النص الصوفي للرفض الإيديولوجي الممنهج، لتعارضه مع الدوائر الدينية والفقهية على مستوى الفهم والتفسير. إذ كان الفقهاء أول من تصدّى للخطاب الصوفي، ورفضوه جملة وتفصيلاً وأبوا إلا أن يفتحوا معه قنوات التواصل. لتعارضه مع القنوات الدينية إذ اتهموا أعلامه بالزندقة ورموهم بالكفر والهرطقة، واستباحوا دماءهم. والتاريخ يحتفظ بمآسي الصوفية مع المؤسسات الدينية التي اضطهدت الكلمة الصوفية وقضت على ملكة الإبداع الصوفي الخلاق. وما قصة مصرع الحلاج

والسهروردي سوى فصل من فصول التاريخ الدّامي الذي لاحق شهداء الكلمة والبوح، وفي هذا المقام يقول ابن عربي:

(وَعُصْ فِي بَحْرِ ذَاتِ الذَّاتِ تُبْصِرُ عَجَائِبَ مَا تَبَدَّتْ لِلْعِيَانِ
وَأَسْرَارًا تَرَاءَتْ مُبْهِمَاتٍ مُسْتَرَّةً بِأَرْوَاحِ الْمَعَانِي
فَمَنْ فَهَمَ الْإِشَارَةَ فَلْيَصْنَهَا وَإِلَّا سَوْفَ يُقْتَلُ بِالسِّنَانِ
كَحَلَّاجِ الْحَبَّةِ إِذْ تَبَدَّتْ لَهُ شَمْسُ الْحَقِيقَةِ بِالتَّدَانِي
فَقَالَ: أَنَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَغْيُرُ ذَاتَهُ مَرُّ الزَّمَانِ) (13)

بدت أول بوادر التعارض بين الخطاب الصوفي ومتلقيه، في بداية القرن الثالث للهجرة. حين حاول المتصوفة صياغة خطاب يتغنّى بالحب الإلهي. إذ طرح مفهوماً جديداً لعلاقة العبد بخالقه، إذ (أنزل المتصوفة الله في خطابهم منزلة حسية يُحِبُّ وَيُحِبُّ، اقتضاها منطق البوح) (14).

ولهذا جاءت الممارسة الخطابية للأديب الصوفي حين عبر عن حبه لمعشوقه صادمة متناقضة مع المعنى المكون في ذهن المتلقي. الذي مثله الخطاب الديني الرسمي، مُثْلاً في أشخاص الفقهاء ورجال الدين تحت وصاية ورعاية نظام الحكم. ويرجع أدونيس، الاضطهاد الذي لاحق الصوفية وخطابهم لكونه نشأ (في مناخ ثقافي ينهض على الإيمان بأن هناك حقيقة واحدة، وحيدة، نهائية، وكل ما عداها باطل. وهي إلى ذلك مجسدة في شريعة، يستند إليها ويحرسها نظام سياسي، وكل قول آخر، إما أنه يتطابق معها وحينئذ يكون نافلاً، وإما أنه يتناقض معها، وحينئذ يجب رفضه ونبد) (15).

هذا الخطاب المتفرد الذي أملتته وفرضته معطيات التجربة الصوفية. تعرض للرفض والتهميش والتغيب، ومورست في حقه ضروب من الإقصاء من طرف المنظومة المعرفية في الثقافة العربية الإسلامية. إما لتعارضه مع القناعات الدينية والتصورات الفكرية للمتلقي. وإما لتعرضه لسوء الفهم وقصور في استيعاب الفكر الصوفي برمته. فكانت ردود الفعل إزاء هذه الرسالة الفنية التي جسدها القول الصوفي (باهتا إن لم نقل يدعو إلى الاستغراب، وهو تفاعل سلبي غذته صرامة مقاييس التلقي المسبقة، التي لا يستجيب لها الخطاب الصوفي، والذي حمل أفق انتظار مغاير، ووعيا جديدا) (16).

فدائرة التلقي المحكومة سلفاً بمعايير صارمة، جعلت المتلقي غير مهين ولا قادر على استساغة التعبير الصوفي الجديد. الذي عبر من خلاله الصوفي عن علاقته بالذات الإلهية، كقول الحلاج مثلاً:

(أَنَا مِنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنًا
فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَهُ وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا) (17)

جاء موقف المتلقي إقصائياً، مستهجناً لهذا النوع من الخطاب. وتعطلت العملية التواصلية حين عجز المتلقي المشمول إيديولوجياً من فكِّ هذا النظام الرمزي الذي خلخل آفاق التلقي. التي لم تكن متطابقة ولا متوازنة، إذ كيف للمتلقي أن: (يتقبل تحطّم المفهوم القديم المنطقي والنفسي والمعرفي لوحدة الأنأ، وأحادية الله، وكيف تنفك الهوية والذاتية وتحى الوسائط والفواصل بين العبد والله، وكيف يحلّ التفكك محلّ الوحدة، والباطن المتعب محلّ الظاهر الواضح المريح؟) (18).

اجتمعت عدة معطيات وخلفيات ساهمت بشكل كبير في تبلور مشكلة غموض تجربة الكتابة الصوفية. ومنها تفاقمت مشكلة الفهم والتفسير وقراءة وتلقي هذا النمط الجديد في الكتابة، وتشديد الدلالة. أولها راجع لطبيعة التجربة التي افترضت التستر وعدم البوح. أي إنّ التخفي وراء الرمز فعل قصدي من الصوفية، رغبةً منهم في حفظ الأسرار خشية وقوعها في غير أهلها. فعلومهم لدنية لا تحتل الإفشاء والإظهار.

ثانيها: الاضطهاد الذي لاحق رجال التصوف وخطابهم. كونها تتنافى ظاهرياً مع آراء الشريعة. ومع الذوق العام. وانطلاقاً من هذا طالها الإقصاء والتغيب وسوء الفهم. ووضعت على الهامش لعقود طويلة طال أمدها.

2- النص الصوفي: من نسق اللغة المغلق إلى رحابة التأويل.

أضحت عملية القراءة بمفهومها الحديث، عملية تشكيل، بناء وإنتاج للمعنى. وأصبح للمتلقي حرية الإبحار في أعماق النصوص والخطابات للبحث عن تلك المقاصد والمعاني المتوارية. فصار النص وفق هذا المفهوم بنية خاضعة لقوة وسلطة المتلقي، الذي يفسر ويؤول. فقد أخذ القارئ مع الاتجاهات

النقدية المعاصرة دوراً فعالاً ونشطاً بعد أن ألبس ثوب البطولة في مسرح إنتاج وتشييد الدلالة. بعد أن أعادت له نظرية التلقي الاعتبار. وتظهر أهمية المتلقي في دوره المحوري في عملية التواصل، فهو طرف مهم في العمل الأدبي، ومن دونه فلا معنى للنصوص الأدبية. التي تفرض وجودها من خلال التداولية التي يمنحها لها القراء وفق معطياتهم الإبداعية. إن فعل القراءة بهذا المفهوم هو إثارة الدلالات المدسوسة في أعماق النص الأدبي. أو لنقل، هي استحضار للمعاني غير المصرح بها. وذلك باستنطاق البنى اللغوية للنصوص وشحنها بالمعاني والدلالات من صميمها. وهكذا تغدو القراءة خلقاً جديداً للمعنى.

تعثرت محاولات استقبال الخطاب الصوفي بالطرق التقليدية. التي تعتمد غالباً على القراءة السطحية، وعلى ظاهر المعنى، من دون أي محاولة لتفسير القول الصوفي. وإن أصحاب هذه المحاولة معذورون في فشلهم. لأن محاولة تتبع المعنى داخل نصوص تعتمد في معارفها على الذوق والكشف ومعايشة الحالة بكلّ حيثياتها، وباعتبارها كذلك، أفعالاً كلامية شديدة التعقيد، أمراً في غاية الصعوبة للاعتبارات المذكورة آنفاً. ورغم هذا فإن قراءة وتحليل الخطاب الصوفي كمادة أدبية إبداعية، لها خصائصها الأسلوبية واللسانية، يتضمن شروط النصية والانسجام والجمالية، أمراً مشروعاً وقابلاً للتحقيق.

النص الصوفي تجربة لغوية فريدة من نوعها. حاولت التعبير عن الحقيقة المغيبة، هو عالم سحري يعجّ بالمفارقات، نص مغرٍ للقراءة، نص صامت يضمن ويخفي أكثر مما يبوح ويصرح، يغوي، يشوش، يصدّم ويثير دهشة قرائه. بمعنى آخر النص الصوفي يستفز ويثير تساؤلات لا متناهية، يطرح أفكاراً جديداً، يضم عبارات ومعانٍ مستغربة في حقل التداول اللساني. في الآن ذاته، هو نص منفتح على القراءات، يتحاور معها جميعاً. متعدد الرؤى والآفاق. يفتح ذراعيه لكل القراء. وإلى ذلك يبقى مختلفاً عنها جميعاً. والنص الصوفي باعتباره حقل إمكان، فإن فضاء القراءة يسمح بالتعدد، وتعدّد القراءات يفضي إلى تعددية المعنى (لأن النص مفتوح أبداً، والانفتاح لا يكون أبدياً إلا إذا أتاحه الكشف عن الباطن، الخفي واللامرئي في الأشياء)⁽¹⁹⁾.

وما دام الخطاب الصوفي نسقاً لغوياً له أبعاده التواصلية. وهو كرسالة، موجهة للمتلقي، تحتاج تأملاً عميقاً في باطن الخطاب. ووقوفاً جاداً وحازماً للوقوف على حمولته الدلالية. واستنطاق أنسجة العلامات اللغوية المهيمنة فيه. لأنّ المعنى في النصوص الصوفية ليس معطى جاهزاً، ولأجل احتواء هذا المعنى، أو المعاني الممكنة فيها، وجب على المتلقي أن يتفاعل مع النص ويحاول تقريب أفق انتظاره مع الأفق الذي يحمله النص. لأنّ النص الصوفي يتوجه إلينا كما يقول أدونيس: (طالعا من مجهول يستلزم قراءته بوصفه مرجع ذاته لذاته، ويستلزم قراءته بعين القلب، لا في أفق المعلوم، بل في أفق المجهول) (20).

ثمّة خاصية تمنح النصوص والخطابات الديمومة والتداولية. رغم تعاقب الحقب الزمنية، واختلاف الإيديولوجيات، وتوالي جمهور المتلقين. هذه الخاصية لا يمكن أن تكون سوى تلك الضبابية التي تحيط بالنص، وهو ما يصنع الشغف لدى القارئ لإزاحة الحجب الذي يسود معاني النصوص. فبالقدر الذي لا تبوح بمكنوناتها، ولا تُفصح عن دلالاتها ومقاصدها، أي لا تقدّم المعنى جاهزاً. بالقدر الذي تضمن لنفسها شروط البقاء والمقروئية باستمرار. فتقوّ النص كما يقول إمبرتيكو: (تكن بالتحديد في هذا الغموض الدائم، وفي هذا الرنين المتواصل لعدد كبير من المعاني التي تسمح كلها بالانتقاء دون أن تكون تحت سيطرتها) (21).

تبدو عملية مقارنة النص الصوفي واستكناه مقاصده والوقوف على معاني ودلالة عباراته، متاحاً أكثر وفق آليات المقاربة التأويلية. نظراً لما يُتيح للمتلقي من سلطة لقول ما لم يقله النص ذاته. وهذا بتوظيف مجموعة من الآليات والمفاتيح اللغوية لأجل قراءة البنى العميقة للنصوص. والحاجة لاعتماد هذا المنهج في فهم النصوص الصوفية راجع أساساً لطبيعتها، فهي من زمرة الخطابات المعقدة التي تكتنفها الرموز والطلاسم.

يقول محمد مفتاح عن التأويل إنّ: (أصل نشأته وسيورته وإجرائه. يرجع إلى مقولتين؛ أولاًهما غرابة المعنى عن القيم السائدة، القيم الثقافية والسياسية والفكرية، وثانيتهما بث قيم جديدة بتأويل جديد؛ أي إرجاع الغرابة إلى الألفة، ودس الغرابة في الألفة) (22). وهذا ما يتطابق فعلاً مع الخطاب

الصوفي. من جهة هو خطاب استغربت معانيه على السامعين، بلغته الغامضة وعباراته غير التداولية. ومن جهة أخرى تأتي الحاجة لفهمه اعتباراً من كونه رصيذاً أدبياً ينتمي لحركة الفكر العربي الإسلامي. تُمثل آلية التأويل مقارنة ونشاطاً يُمكن المتلقي من استكناه معاني النصوص المستعصية على الفهم والتي تُخفي مخزونها الدلالي. وحين يُمارس المتلقي مقارنة تأويلية على النص فإنه يحاول الغوص في الآفاق التي يمنحها له النص، ووفق ما يتيح. لأنّ (كل أثر في حتى وإن كان مكتملاً ومغلقاً من خلال اكتمال بنيته المضبوطة بدقة، هو أثر "مفتوح" على الأقل من خلال كونه يؤول بطرق مختلفة دون أن تتأثر خصوصيته التي لا يمكن أن تحتزل)⁽²³⁾، وعالم النص الأدبي عبارة عن شلالات من المعاني والدلالات، التي يَصْعَبُ الإمساك بها دون القراءة العميقة. (فالنص بنية متحركة، وبنية تتحرك فيها. أي إنّ الأولى انفتاح مستمر على مسار التطور الزمني يلتقط كافة الردود، تتراكم فيه القراءات تباعاً، وكأنّها تحقيقات متعددة للنص فهو ككرة الثلج التي تنطلق صغيرة من رأس الجبل، وكلّما نزلت، ازدادت سرعة وحجماً، بما يضاف إليها من طبقات ثلجية)⁽²⁴⁾.

فعل القراءة اقتناص للمعنى، وبحث عن مقصدية المبدع. وإنّ نجاح الفعل القرائي لا يتم سوى حين يتمكن المتلقي من فكِّ شفرات النص، والتّسلل لباطنه، والإمساك بنسيجه الداخلي. هكذا تكون عملية التأويل (حركة عكسية يقوم بها المؤول تسير من الخارج إلى الداخل فالمؤول لا يراود النص من خارجه، بل يقوم باستيطانه والدفع به إلى تسليم كل أسرارهِ. وهو ما يعني بصيغة أخرى، أننا لا نقوم من خلال التأويل بالكشف عن نوايا المؤلف ومقاصده فحسب، بل نقوم أيضاً ببناء قارئ مفترض هو القارئ الذي كان النص موجهاً إليه في البداية)⁽²⁵⁾.

تفرض عملية فهم وتأويل النص بما يسمح القبض على معانيه ودلالاته الكامنة على المتلقي، إقامة علاقة حميمة مع النص. هذه العلاقة الحميمة، تُساعد المتلقي في ولوج الدروب الوعرة في النص. كما تسمح له بكشف أغواره العميقة والقبض على دلالاته المختزنة غير المصرح بها. وإذا (أُضيف إلى تلك القدرة الانفعال الوجداني بالتجارب التي يتضمنها النص، دون الاكتفاء بالتأمل العقلي المجرد،

فإن المتلقي (أو القارئ) تغدو له القدرة على بناء النص ذاتياً ليمسي قارئاً "حقيقياً" (أو مثالياً)، بمعنى أنه يحقق ما يسمى "الدور التأويلي" (26).

والذي يمثل للقارئ نشاطاً لمقاربة النصوص الصوفية، وهذا ما نُحْتَمُّ عليه تذوقها أو كما يقول منصف عبد الحق: (أن نمارس قراءة اللغة الشاعرة يعني أن نعيش تجربة معها، تجربة تمسنا في عمق كينونتنا، أن نستجيب لندائها كما استجاب كاتبها لها. أن نقرأ، بعبارة وجيزة، يعني أن ننصت، أن نترك اللغة الشاعرة تنبثق لتدلنا على هوامشنا) (27)، بمعنى أن نستعيد زمن الكتابة ونفتح عليها لتكشف أماننا كما انكشفت لكاتبها أول مرة.

وبفضل فعل التأويل، تحوّل فعل القراءة إلى فعل إنتاجي بعد أن كان فعل القراءة ممارسة روتينية شبيهة بالمقرعات الهوائية، تكتفي فقط بتلقي النصوص تلقياً سلبياً في الغالب، من دون تفاعل معها؛ يستقبل خلالها القارئ المعنى جاهزاً ويؤخذ كما هو من دون إشغال للفكر، دون تحليل أو تقيص.

من أهداف النص الأدبي، تحقيق التواصل. سواء لفئات محددة، أو لجماعات معينة مخصوصة، أو لعوام المتلقين. على اختلاف مشاربهم وأزمنتهم وثقافتهم وبقاعهم. وعدم تحقق هذه الوظيفة - التواصل - في عصر ما مع جمهور من المتلقين. لا يلغي بتاتاً الوظيفة التواصلية للنصوص الأدبية. وعندما يتعلق الأمر بالخطاب الصوفي، فإننا نتحدث عن تجربة وممارسة فريدة في الكتابة والتعبير. (في هذه الممارسة قد لا نعثر على الآثار الدالة على المقاصد المباشرة للخطاب، بقدر ما نقع فيه على مؤشرات التواصل التي تساعد المتلقي على التفاعل مع النص. ولذلك يكون هذا الفصل تموضعاً داخل النص الصوفي للكشف عن آليات التفاعل والتواصل التي يحملها) (28)، وهنا يجد المتلقي نفسه إزاء نصٍ مغلقٍ، مبهمٍ، صامتٍ (داخل جدران بنائه اللغوي، حتى إذا أنطقته التجربة تكلم بمعان متعددة تتجدد وتنوع عند كل قراءة، دون أن تتضارب تلك المعاني أو تتناقض، ولكنها تتكامل لأنها لا تتجاوز بحالٍ حقائق النص الممكنة، تلك الحقائق التي تتجاوز، عبر تعدد القراءات) (29).

ما تنتظره النصوص الصوفية، هو قارئ حاذق. لأنّ خطاب المتصوّفة لا يبحث عن إرضاء الذّوق الجمالي للمتلقّي بالقدر الذي يولي أهمية للتأثير في البنية العقلية والفكرية له، (فالصوفي يعد نفسه صاحب رسالة تقتضي دمج وعي القارئ بوعي النص)⁽³⁰⁾ ليكون مهياً وقادراً على ملء الفجوات في نصٍ ينزاح للتشفير والتلويح. ومع هذا، (فإن تلك المحبب نفسها هي التي تمنح القارئ طرح جميع الإمكانيات والوجوه للبحث عن المعنى الضائع، وهي دعوة من المتصوفة لممارسة الاختلاف الذي أساسه العشق)⁽³¹⁾ وهنا يظهر دور المتلقي الذي يفتح على دلالات إضافية لتلك التي يحملها النص (أو المعنى الأصلي الذي يرمي إليه الباث)، لذا على المتلقي توسيع أفق نظره ممّا قد يتيح له (مساحة واسعة لتحديد الزوايا المقترحة للنظر إلى النص، ومن ثمّ الولوج إلى سراديبه وممراته السرية، ولا شكّ أن التعديل في زاوية الرؤية سيعود إلى اكتشاف وجه آخر من وجوه الدلالة للنص)⁽³²⁾.

تمثل المقاربة التأويلية واحدة من الأطر المنهجية التي تسمح باستكناه المعاني المضمرة في النصوص الأدبية والخطابات على اختلافها. وهو ما يمنح لها أبعاداً لا متناهية. ومن خلال هذه الآليات يستطيع كل متلقٍ للنص، إضافة أبعاد جديدة للمعنى. هكذا يتحول التأويل (إلى لحظة إبداع، أن يحيل المعنى الجديد داخله إلى خلق ثانٍ يستوعب الخلق الأول، بل قد يتجاوزه)⁽³³⁾، ويغدو التأويل قراءة عميقة للنص، تكتشف مكانه وتقبض على بنياته العميقة. وكلّ هذا يتم انطلاقاً من الإلمام بالفرضيات والحيثيات جميعاً، التي تحيط بالأثر الإبداعي. كما تتحدد فاعلية القراءة التأويلية بقدرات المؤلّ، لأنّه العنصر الهام في تحقيق هذه العملية. غير أنّ القراءة التي تنفي بهذا الغرض هنا، تتعلق بتلك القراءة الفاحصة التي لا تقف عند حدود ظاهر المعنى. ووحده المتلقي ذو الكفاءة اللغوية والقراءة يستطيع مساءلة النص المائل أمامه. ومن خلال شبكة الرموز والإيحاءات التي تُشكّل النص، يدفع المتلقي نفسه دفعاً نحو اقتناص النص الثاني المتخفي. فشبكة الرموز والإيحاءات (هي مفتاح قصد فتح المعنى المتواري والخفي وراء أو تحت العبارات الظاهرة المرئية)⁽³⁴⁾.

وبهذا المعنى، يُصبح التأويل تعددًا للقراءات وتجاوزًا لها. أي تجاوزًا للرئي إلى المخفي، المصرح إلى المضمّر، الظاهر إلى الباطن. ومنه يصبح النص مفتوحًا على اللامتناهي من المعاني والدلالات. وهكذا تغدو عملية التأويل دفعا للنص إلى الإفصاح عن المعاني التي يحملها كلها.

خاتمة:

تسعى المقاربة التأويلية إلى تجنيد مجموعة من الآليات والتقنيات والمفاتيح اللغوية والرمزية في سبيل الكشف عن حقيقة ومغزى النصوص على اختلافها وتنوعها. سعيًا نحو تفسيرها وتحليلها والقبض على المعنى المخترن المتوارى في ثناياها. وهكذا، يغدو التأويل مفتاحًا هامًا للتعامل مع النصوص الأدبية لاستنطاقها واقتناص مقاصدها ومعانيها، خصوصًا مع النصوص التراثية التي تتشكّل وفق نسقٍ مغلقٍ من الرموز والإشارات والتلويحات. تمامًا كالنصوص الصوفية المنبثقة من تجربة روحية عرفانية، لها عباراتها الخاصة. كما أنّ لتجربة الكتابة الصوفية مصطلحاتها ومُعجمها اللغوي الخاص، والذي شكّل نمطًا فريدًا في التعبير عن حقائق وعلوم التصوّف. ولهذا، فإنّ مقارنة الخطاب الصوفي لا يمكن أن تتحقّق سوى بفسح المجال للدور التأويلي، كنشاطٍ هادفٍ لاستكناه مقاصد النص والقبض على دلالة معانيه وعباراته. بما يسمح باكتشاف النص من أوجه أخرى، أي توليد دلالات جديدة يحتملها النص. من دون أن يمارس المؤلّ قراءة تعسّفية تقضي وتُخلّ بمقاصد الباث ونصّه.

هوامش

- ¹ أبو القاسم عبد الكريم: القشيري، الرسالة القشيرية، دار الكتب العلمية، د. ط، بيروت، لبنان، 2001، ص: 89.
- ² أبو الوفا الغنيمي التافازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط 3، القاهرة، د. ت، ص: 8.
- ³ أبو العلا عفيفي: التصوف الثّورة الروحية في الإسلام، أقلام عربية للنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة، 2017، ص: 254.
- ⁴ السراج الطوسي: اللّع، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان، 2001، ص: 289.

- ⁵ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁶ أبو بكر الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، مكتبة الخانجي، ط 2، القاهرة، 1994، ص: 60.
- ⁷ المصدر نفسه، ص: 61.
- ⁸ علي أحمد سعيد، أدونيس: الثابت والمتحول، ج 2، دار العودة، ط 2، بيروت، 1979، ص: 95.
- ⁹ علي أحمد سعيد، أدونيس: الصوفية والسوريالية، دار السّاقى، ط 3، بيروت، د. ت، ص: 142.
- ¹⁰ المرجع نفسه، ص: 140.
- ¹¹ عبد الوهاب الشعراني: الطبقات الكبرى، ج 1، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، القاهرة، 2005، ص: 26.
- ¹² آمنة بلعل: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، منشورات الاختلاف، ط 1، الجزائر، 2010، ص: 30.
- ¹³ محي الدين بن عربي: الإسراء إلى المقام الأسرى، دندرة للطباعة والنشر، ط 1، بيروت، لبنان، 1988، ص: 58-59.
- ¹⁴ آمنة بلعل: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ص: 30.
- ¹⁵ علي أحمد سعيد، أدونيس: الصوفية والسوريالية، ص: 187.
- ¹⁶ آمنة بلعل: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ص: 30.
- ¹⁷ كامل مصطفى الشبيبي: شرح ديوان الحلاج، منشورات الجمل، ط 2، د. ت، ص: 151.
- ¹⁸ آمنة بلعل: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ص: 31.
- ¹⁹ المرجع نفسه، ص: 83.
- ²⁰ علي أحمد سعيد، أدونيس: الصوفية والسوريالية، ص: 185.
- ²¹ أمبرتو إيكو: الأثر المفتوح، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط 2، اللاذقية، سوريا، 2001، ص: 166.
- ²² محمد مفتاح: التلقي والتأويل، المركز الثقافي العربي، د. ط، بيروت، لبنان، الدار البيضاء المغرب، د. ت، ص: 218.
- ²³ أمبرتو إيكو: الأثر المفتوح، ص: 16.
- ²⁴ حبيب مونسي: فلسفة القراءة وإشكاليات المعنى، دار الغرب للنشر والتوزيع، د. ط، د. ت، ص: 203.
- ²⁵ سعيد بن كراد: استراتيجيات التأويل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط 1، الرباط، 2011، ص: 11.
- ²⁶ محمد مصطفى عزام: الخطاب الصوفي، بين التأول والتأويل، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، ط 1، بيروت، لبنان، 2010، ص: 91.
- ²⁷ عبد الحق منصف: أبعاد التجربة الصوفية، أفريقيا الشرق، د. ط، الدار البيضاء، المغرب، 2007، ص: 255.
- ²⁸ آمنة بلعل: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ص: 99.

- 29 محمد مصطفى عزام: الخطاب الصوفي، بين التأول والتأويل، ص: 92.
- 30 محمد المبارك: استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، بيروت، 1999، ص: 199.
- 31 آمنة بلعل: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ص: 88.
- 32 محمد علي كندي: في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، بيروت، لبنان، 2010، ص: 308.
- 33 سعيد بن كراد: استراتيجيات التأويل، ص: 11.
- 34 محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات، منشورات ضفاف، ط 1، بيروت، 2015، ص: 29.
- قائمة المراجع:**
- 1- أدونيس، علي أحمد سعيد: الثابت والمتحول، دار العودة، لبنان، 1979.
 - 2- أدونيس، علي أحمد سعيد، الصوفية والسوريالية، دار الساق، لبنان، د. ت.
 - 3- ابن عربي محي الدين: الإسراء إلى المقام الأسرى، دندرة للطباعة والنشر، لبنان، 1988.
 - 4- أمبرتو إيكو: الأثر المفتوح، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، 2001.
 - 5- بلعل آمنة: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010.
 - 6- بن كراد سعيد: استراتيجيات التأويل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المغرب، 2011.
 - 7- التافازاني أبو الوفا الغنيمي: مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، مصر، د. ت.
 - 8- الشّعراي عبد الوهاب: الطبقات الكبرى، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2005.
 - 9- شوقي الزين محمد: تأويلات وتفكيكات، منشورات ضفاف، لبنان، 2015.
 - 10- الشبيبي كامل مصطفى: شرح ديوان الحلاج، منشورات الجمل، د. ت.
 - 11- الطوسي السراج: اللع، دار الكتب العلمية، لبنان، 2001.
 - 12- عزام محمد مصطفى: الخطاب الصوفي بين التأول والتأويل، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، لبنان، 2010.
 - 13- عفيفي أبو العلا: التصوف الثورة الروحية في الإسلام، أقلام عربية للنشر والتوزيع، مصر، 2017.
 - 14- القشيري أبو القاسم: الرسالة، دار الكتب العلمية، لبنان، 2001.
 - 15- الكلاباذي أبو بكر: مكتبة الخانجي، مصر، 1994.
 - 16- الكندي محمد علي: في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2010.
 - 17- المبارك أحمد: استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، 1999.
 - 18- مفتاح محمد: التلقي والتأويل، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب، د. ت.
 - 19- منصف عبد الحق: أبعاد التجربة الصوفية، أفريقيا الشرق، المغرب، 2007.

20- مونسى حبيب: فلسفة القراءة وإشكالية المعنى، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ت.